تراسل النظرات في القرآن الكريم
- دراسة سيميائية -

م. د. جاسم جعيز منخي كلية الإمام الكاظم عليه السلام للعلوم الإسلامية الجامعة، قسم اللغة العربية
jassim.jaez@alkadhum-col.edu.iq

الملخص

هذا البحث الموسوم (تراسل النظرات في القرآن الكريم – دراسة سيميائية-) ناظرٌ إلى ما تنماز به العين من ثراء دلاليّ له الأثر البالغ في تحقيق التواصل سواء في الإيجاب أم السلب، وقد قيل قديما في الأمثال: ((ربّ عين أنمّ من لسان)) (الميداني، 1955م، 1/ 204).

وقد تبيّن أن السياق القرآني أورد لفظ العين، والبصر، والنظر، بدلالات لا تقل شأنا عمّا ينطقه اللسان، بل إنها تفوقه دلالةً في مواضع يكون فيها التلميح أشد أثرًا من التصريح، فعين المرسِل تضمر القصدية لإيصال المعنى المراد لعين المستقبِل، وبهذا اللحاظ فقد كشفت النصوص أنّ آثار الاحتقار والخيانة والخوف والذلّ برزت في تراسل النظرات، كما دلّت على الرعاية والحفظ، والوعي والاعتبار، وكل ما دلّت عليه العين بلوازمها لا ينفصل عن حال صاحبها النفسية والاجتماعية فضلا عن البيئة التي تربّى فيها.

الكلمات المفتاحية: (تراسل، النظر، سيميائية، القرآن).

This research entitled (Correspondence of looks in the Holy Quran – a semiotic study) He shed light on the richness of the semantic eye that has a

great impact on achieving communication, whether in the affirmative or the negative. And it has been shown that the Qur'anic context contained the term eye, sight, and gaze with connotations not less than what the tongue uttered. Rather, it has more significance in places where the hint is more effective than the statement. The effects of contempt, betrayal, fear and humiliation emerged in the correspondence of looks, as indicated by care, conservation, awareness and consideration, and whenever the eye indicates it with its supplies, it is inseparable from the psychological and social condition of its owner as well as the environment in which it is raised. Keywords: (correspondence, consideration, semiotics)

المقدّمة

الحمد لله الذي جعل العين نافذة لمدّ البصر، وأداة تساعد في تفسير العالم من حولنا، والصلاة والسلام على خير المبصرين محمد وآله الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان.

وبعدُ، فإن النصّ الإلهي أولى العين اهتماما بالغا؛ لأنّها قناة التواصل بين الأجساد في خطابها الصامت، فالمتتبع لآيات الله المباركات يلحظ أنها أكدت في تشريعها ضرورة غضّ المؤمنين أبصارهم للابتعاد عن تأثيرات التواصل السلبي عبر العين، فضلا عمّا تحمله تلك النافذة من دلالة كاشفة عن المعتقد والإيمان لدى الرائي، وقد استعمل القرآن الكريم تارة لفظ العين، وثانية النظر، وأخرى البصر.

وفي بحثنا هذا الذي وسمناه بـ(تراسل النظرات في القرآن الكريم)، اخترنا صيغة تفاعل لما فيها من دلالة المشاركة، فالبحث قائم على التواصل والمشاركة؛ إذ إنه يركز على التخاطب بالعين؛ وفيه –أي: البحث– سنقف على أبرز المعاني الصريحة والمضمرة للعين بلحاظ لفظ العين مرة، والنظر أخرى، والبصر ثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللغة الإشارية:

نلجأ في حياتنا المعاصرة إلى الصمت لكننا لا نتوقف عن الكلام، فما إن تفتش في

وجوهنا وهيئة أجسادنا حتى تجدنا نتحاور ونبيّن، ولكن بطريق الإشارة والتلميح جسديًّا، فالعين كثيرا ما قالت ما لم يقله اللسان، بل قد يعجز اللسان عن قول ما تقوله العين، فهي فاضحة لما يختلج في ضامر صاحبها إذا كان الناظر لها محلّلا حاذقًا.

وقد تنبّه العلماء قديما على الثراء الدلاليّ الذي للعين، فإننا نجد في أمثال العرب قولهم: ((شاهد البغض اللحظ)) (الميداني، 1955م، 1/ 76)، وكذلك قولهم: ((ربّ عين أنمّ من لسان)) (الميداني، 1955م، 1/ 204)، و ((ربّ طرف أفصح من لسان)) (الطبرسيّ، 2005م، 1/ 306)، لذلك أدرك اللغويون ما للعين من تنوع دلاليّ فربطوا بين اختلاف الدلالة وتنوع المسمّى على وفق حركة العين وزاوية النظرة (الثعالبي، ينظر: ص86)، وهذا ابن حزم يطالعنا في طوق الحمامة بقوله: ((فالإشارة بمؤخّر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه. والإشارة الخفيّة بمؤخّر العينين كلتاهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة..... وقد قيل: ليس المُخبر كالمعاين)) (الأندلسي، 1975م، ص105و106). وبناءً على ذلك يصعب إعطاء وصف نظري دقيق للمواقف التي تشترك في تكوينها لغة الجسد، إلا بالمشاهدة والمعاينة.

وقد تغنّى الشعراء بلغة العين، فحين يعجز اللسان عن القول يأتي دور الجسد ليقول كلمته، ويطالعنا أحد الشعراء بقوله (الأصبهاني، 1985م، 1/ 150):

وإذا التقينا والعيونُ رواموقُ صمتَ اللسانُ وطرفُها يتكلمُ
تشكو فأفهمُ ما تقول بطرفِها ويَرُدُّ طرفي مثلَ ذاك فتفهمُ

ويقول آخر (الأصبهاني، 1985م، 1/ 150).

إذا خِفْنا من الرُّقباء عيناً تكلّمت العيونُ عن القلوب

وفي مبحثنا هذا سنستشرف المعاني التي تصنعها لغة العين ولوازمها من نظر وبصر على وفق ما ورد في النصّ القرآنيّ الشريف.

العين:

تتمظهر العين بصور مختلفة تبعا للحال النفسيّة للرائي، كاشفة بتعبيرها الحركيّ ما أضمره اللسان، وللعين في القرآن الكريم كما سيتضح وظيفة فاعلة ومؤثّرة في عملية التواصل البشريّ، والنصوص التي ذكرت العين بوصفها لغة جسديّة دالّة هي:

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف116].

قوله: «سحروا أعين الناس»، أي: أنهم احتالوا في تحريك العُصي والحبال، على النحو الذي جعل الناس يُخيَّل إليهم أنها تتحرك على ما تتحرك الحيّة، وفي هذا دلالة على أن السحر لا حقيقة له؛ لأنها لو صارت حيات حقيقية لعبر القرآن عن ذلك بحقيقة تحول الحبال والعصي إلى حيات، إلا أنّه ذكر أنّهم سحروا الأعين، وقال في موضع آخر: «يخيل إليه من سحرهم أنّها تسعى» (الزمخشري، 2012م، ينظر: 2/ 131) و (الطبرسيّ، 2005م، ينظر:4/ 244).

وقوله تعالى: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهَّ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللهُّ خَيْرًا اللهُّ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [هود 31].

جاءت هذه الآية على لسان النبيّ نوح (عليه السلام)، والمعنى، أي: لا أقول للذين تحتقرهم أعينكم لما ترون عليهم من زيٍّ الفقراء لا يعطيهم الله خيراً على أعمالهم (الزمخشري، 2012م، ينظر2/ 360) و (الطبرسي، 2005م، ينظر:5/ 267)، وقد أشار القرآن الكريم في الآيات السابقة لهذه الآية بقوله: «فَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» (هود، الآية :27).[1]، أي: اتبعك أخساؤنا الذين لا مال لهم ولا جاه، ولم

يتبعك الملأ والأشراف والرؤساء منّا (الماوردي، ينظر:2/ 465) و (الطبرسيّ، 2005م، 5/ 264). والازدراء: الاحتقار، افتعال من الزراية (ابن منظور، 2009م، 14/ 356)، قال الشاعر (الطبرسيّ، 2005م، 5/ 265):

رأوه فـــازدروه، وهـــو خِـــرقٌ ... وينـفـعُ أهـلَـه الـرجـلُ القبيحُ
ولم يخـشَـوا مـصـالـتـه عليهم، ... وتحـت الـرَّغـوةِ الـلـبـنُ الـصريـحُ

والأصل في تزدري، تزدريهم، حُذفت الهاء والميم لطول الاسم، والدال مبدلة من تاء؛ لأنّ الأصل في تزدري: تزتَري، ولكنّ التاء تُبدل بعد الزاي دالاً؛ لأنّ الزاي مجهورةٌ والتاء مهموسة، فأُبدلَ من التاء حرفٌ مجهورٌ من مخرجها، ويقال: أزْرَيتُ عليه: إذا عِبتَه، وزرَيتُ عليه: إذا حقَّرته، ويرى الصرفيّون أنّ مثل هذا الإبدال يطّرد في الألفاظ التي فاؤها دال أو ذال أو زاي (القرطبي، 2006م، ينظر:11/ 104) و (شلاش، الفرطوسي، ينظر: ص295).

وإسناد الازدراء إلى الأعين – وإنّما هو من أفعال النفس– مجاز عقليّ؛ لأنّ الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر، ونظيره قوله تعالى: "سحروا أعين الناس"، وإنّما سحروا عقولهم، ولكنّ الأعين ترى حركات السحرة فتؤثّر رؤيتها في عقول المبصرين (ابن عاشور، 1984م، ينظر:12/ 58)، وهذا يؤكد مقولة إنّ العين باب القلب (ابن عبد ربه، 1983م، ينظر:2/ 115)، ويقول أمير المؤمنين عليّ (ع): ((العين جاسوس القلب وبريد العقل)) (الصادق، 1983م، ص9)، فالآية المباركة تشير إلى الأثر الذي أحدثته العين لدى الرافضين لنوح وأتباعه، فلو تصوّرنا أنّهم فقدوا النظر أكان نوح (عليه السلام) ينعتهم بقوله: "ولا أقول للذين تزدري أعينكم"؟!

وكذلك لم يقل (للذين تزدرونهم) فيسند الازدراء إليهم؛ وذلك أنّه أراد إكرامهم أيضا فكأنّه قال: (أنتم ترون ظواهرهم ولم تخبروا حقيقتهم)، وهذا الازدراء وقع من ظاهر الرؤية، والمرأى قد لا يدلّ على الحقيقة (السامرائي، 2011م، ينظر:3/ 123).

وفي الآية دلالة على امتناع الحكم بالسلب بناءً على الظاهر؛ لأنّ القلب هو الجوهر

والأساس في حسابات البارئ -عزّ وجلّ-، فضلا عن أنّ الموقفين - موقف نوح والذين معه، وموقف قومه- نابعانِ من البيئة التي ينتمي إليها الاثنان، فالبيئة الإيمانية أنتجت نوحا والذين معه، والأخرى أفرزت من وقف بالضدّ من نوح وأتباعه، وهذا يؤكد أنّ التعبير الحركيّ أو القوليّ ليس حدثا لحظيّاً، بل إنّه ينتمي إلى السلوك الذي يعتاده مَن يقوم بالحركة أو القول.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عنهم﴾. [**الكهف** 28].

يوجز القرآن الكريم من المعاني المرادة في عبارات قصار، فقوله: ﴿لا تعدُ عيناك عنهم﴾ دلّت على الرعاية والاهتمام وعدم تركهم بتجاوز عينيك عنهم والنظر إلى غيرهم (ابن قتيبة، 1978م، ص226) و (الثعلبي، 2002م، ينظر:6/ 166) و (الطبرسيّ، 2005م، ينظر:6/ 337)؛ لأنّ مدد النظرة من رسول الله (ص) زاد للمؤمن (الشعراويّ، 1991م، 8875).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾. [**الكهف** 101].

((ليس المراد أنّ عيونهم على الحقيقة كانت في غطاء يسترها وحجاز يحجزها، وإنّما المعنى أنّهم كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تُعرض لهم العبر فلا ينظرون، ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: «عن ذكري»؛ لأنّ الأعين لا توصف بأنّها في غطاء عن ذكر الله تعالى؛ لأنّ ذلك من صفات ذوي العيون. وإنّما المراد أنّ أعينهم كانت تذهب صفحاً عن مواقع العبر، فلا يفكرون فيها، ولا يعتبرون بها)) (الرضيّ، 1986م، ص 218). وهذا المعنى أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوات وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف، الآية:105).

وإيراد العين في الآية المباركة إلماح إلى العين البصيرة لا الجارحة؛ لذلك هم في غطاء ولا يعقلون؛ إذ عطّلوا الوسائل الموصلة إلى الهداية.

وقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْف سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ [**الاحزاب** 19].

نظر سياق الآية لموقفين بمقامين مختلفين شكّلا سلوكين نفسيين متغايرين عند المنافقين، **أولهما**: الخوف الذي يتجسّد في دورانِ العين غير الإرادي في قوله: «تدور أعينهم»، وهو موقفٌ وظيفتُه التعبيرية نابعةٌ من النفس وظاهرةٌ على العينين؛ وشبّهت الآية دوران العينين الذي يعني أنّها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائرة من سرعة تنقلها محملقة إلى الجهات المحيطة، شبهته بالذي يغشى عليه من الموت للتماهي الكبير بين حال عيونهم وعيني الذي يغشى عليه بسبب النزع عند الموت؛ إذ إنّ عينيه تضطربان (الزمخشري، 2012م، ينظر:3/ 488) و (ابن عاشور، 1984م، ينظر:21/ 297). وهذا النوع من السلوك الحركي أحد مصاديق المؤشر البيرسي للعلامة الذي يتسم بعلاقة السببيّة المنطقيّة (محاضرات الملتقى الوطني الأول، 2000م، ينظر:ص36)، فدوران العين بهذه السمة حصل بسبب الخوف، **وثانيهما**: ما صدر من موقف بعد زوال الخوف والشعور بالأمن، إذ قالت الآية: «فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد»، أي خاصموكم ولامُوكم في حال كونهم أشحة على ما فيه الخير للمسلمين، أي أنّ خصامهم إياهم نابع عن بغض وحقد (ابن عاشور، 1984م، ينظر21/ 298)، وقيل إنّهم بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطِنا أعطِنا، فإنّا قد شَهِدْنا معكم، فعند الغنيمة أشحُّ قومٍ وأبسطُهم لساناً، ووقت البأس أجبنُ قومٍ وأخوفُهم (القرطبي، 2006م، ينظر:17/ 105) و (الأندلسي، 1993م، ينظر: 7/ 214).

ودوران العين يرمزُ إلى شدة الخوف، وقد استعان النصّ بجملة الصّلة (كالذي يغشى عليه من الموت) لبيان المعنى الذي يحمله دوران العين، فالتشبيه جاء مبيّنًا وموضّحًا لحركة الدوران ومدى الخوف الذي تمالك نفوس هؤلاء فتمثّل ذلك الخوف بحركة العين الدائرة.

وهذا موقف ناطق صادر عن دراية وعلم، فالخوف أعطى ترسيمة لحال أجساد

المنافقين عند وجوده بالعين الدائرة الخائفة، وبعد ذهابه بالألسن الحداد، وهذا يدلّنا على صعوبة الكلام عليهم في حال الخوف لشدّة الموقف على نفوسهم، فإذا ما ذهب الخوف استطاعوا الكلام فسلقوكم بألسنة حداد، وقد أبرزت الآية سمتين لدى المنافقين تكشف عن طابعهم النفعي الذاتي، هما: الخوف والبخل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص 9]. **وقوله تعالى**: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة القصص 13].

قرة العين، كناية عن السرور، وهي كناية ناشئة عن ضدِّها وهو سُخنَة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن، فلمّا كُنّي عن الحزن بسُخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء: أسْخن الله عينه، أتبعوا ذلك بأن كنّوا عن السرور بضدّ هذه الكناية، فقالوا: قرة عين، وأقرّ الله عينه (الأندلسي، 1993م، ينظر:6/ 473)، وقال أبو تمام (التبريزي، 1994م، ص162):

فأمّا عيونُ العاشقين فأُسْخِنَتْ وأمَّا عيونُ الشامتينَ فقرَّتِ

فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرّة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنّى به العرب عن ذلك وهو «قرة عين»، ومن اللطيف في الآية أنّ المسرّة المعنيّة هي مسرّة حاصلة من مرأى محاسن الطفل، كما في قوله تعالى: «وألقيت عليك محبّة مني» (ابن عاشور، 1984م، ينظر:20/ 78).

والآية ناظرة إلى البُعد النّفسيّ، فقوله: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾، فيه إشارة إلى الجانب النفسيّ ومدى الخوف والقلق الذي شعرت به أمّ موسى (ع) على ابنها، وقد صوّر لنا القرآن الكريم ذلك الحوار النفسيّ لأمّ موسى بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص 10].

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ **[سورة غافر 19]**.

قيل إنّ معنى خيانة الأعين هو مسارقة النظر إلى ما لا يحلُّ النظر إليه، وقيل: هو

الرّمـزُ بالعـين، وأشـار صاحب الكشـاف إلى أنّ الخائنة صفة النظـرة أو مصدر بمعنى الخائنـة (الزمخـشري، 2012م، ينظـر:) و (الـرازيّ، 1981م، ينظـر:27/ 53)، وقـال الشريف الرضي في بيان حركة العين هنا: ((والمراد بخائنة الأعين –والله أعلم– الرَّيب في كسر الجفون، ومرامز العيون، وسمّى سبحانه ذلك خيانة؛ لأنّه أمارة للريبة ومجانب للعفة)) (الرضيّ، 1986م، ص290).

ويُستشعر من النصّ أنّ قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، يعني: مضمرات القلوب (الرازيّ، 1981م، ينظر:27/ 53)، إشارة معنويّة بيّنت الإشارة الماديّة في قوله: ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾، وبهذا يُلفـت القـرآن الكريم القارئ إلى علم الله بـكلّ شيء، ولمّا كان الأمر كذلك، فالمذنب لا ريب أنّه سيكون قلقا وخائفا بشدّة؛ لأنّه يعلم أنّ الله مطّلع على ما يضمره ويفعله.

النظر:

النظـر: هو رؤية في تعمّق وتحقيـق في موضوع مـــــــــادّيّ أو معنويّ، ببصر أو ببصـيرة (المصطفـوي، 1965م، 12/ 184). وقد وردت مادة «نظـر» في القرآن الكريم باشـتقاقات مختلفـة وبدلالات متنوّعة، منهـا: الرؤية، والانتظـار، والاعتبار والتأمّل، والإقصاء من التعطف والرحمة، والخوف، والمذلّة. وسيتضح ذلك على وفق ما سنورده من نصوص قرآنيّة، وهي على النحو الآتي:

تراسـل نظرات كاشـفة عن مضمر نفسيّ، وقد أشـار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُـورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة 127].

تعـرض الآية الكريمة موقـف المنافقين من نزول القرآن الكريـم، إذ صوّرت ذلك بتراسـل النظرات الكاشـفة عمّا يجـول في أعماقهم ويـدور في أذهانهم، ولنـا أن نتصوّر مشـهد النظرات بأن يغمز بعضهم لبعض بسخريّة واسـتهزاء إنكارا للوحي، أو بأنّهم ترامقوا يتشـاورون في تدبير الخروج والانسلال (الزمخشري، 2012م، ينظر2/ 300) و (الرازيّ، 1981م، ينظر 16/ 239).

والأقرب إضافة للمذكور أنّ نظراتهم لغة إشاريّة تضمر الاتفاق على الهرب كراهة سماع نزول القرآن الكريم، وبهذا يكون السؤال «هل يراكم من أحد» تعبيرا حركيّا لنظرات المنافقين كما ذهب الطاهر بن عاشور إلى ذلك قائلا: ((فجملة هل يراكم من أحد بيان لجملة «نظر بعضهم إلى بعض»؛ لأنّ النظر تفاهموا به فيما هو سرّ بينهم، فلما كان النظر نظر تفاهم صحّ بيان جملته بما يدلّ على الاستفهام التعجيبي))(ابن عاشور، 1984م، ينظر: 11/ 68-69). وليس تعبيرا لفظيّا كما ذهب بعض المفسرين (الرازي، 1981م، ينظر:16/ 239–240)، (الآلوسي، ينظر:11/ 74).

ولعلّ ما يدفع هؤلاء لهذا التعبير الحركيّ هو خوفهم من أن تُنزَّلَ سورة تفضح ما يكتمون من إنكار وكفر، وقد أشار الحقّ لذلك الخوف في موضع آخر من سورة التوبة بقوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ **[التوبة: 64]**.

ويأتي النظر بدلالة الخوف المصحوب بالذلّ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ **[الشورى44–45]**.

الخشوع: التطامن وأثر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة، وللمهابة، وللطاعة، وللعجز عن المقاومة (ابن قتيبة، 1978م، ينظر:ص394) و (ابن عاشور، 1984م، 25/ 127). وقوله: «من الذلّ» متعلق بخاشعين، و (من) هنا بيانيّة وليست كما ذهب بعض المفسرين أنّها للتعليل؛ لأنّ الخشوع المصحوب بالذِّل صدر منهم بسبب رؤية العذاب وعرضهم على النّار، وجملة «ينظرون من طرف خفيّ» حال من ضمير «خاشعين»؛ لأنّ النظر من طرف خفيّ حالة للخاشع الذليل، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة. والطرف: أصله مصدر، وهو تحريك جفن العين، يقال: طرف، أي حرّك جفنه، وقد يطلق على العين من تسمية الشيء بفعله (ابن منظور، 2009م، م ينظر: مادة»طرف») و (الزيات وآخرون، ينظر:ص575)، ((ووصفه في هذه الآية بـ«خفيّ» يقتضي أنّه أريد به حركة العين، أي: ينظرون نظراً خفيّاً، أي: لا حِدّة

له فهو كمُسارقة النظر، وذلك من هول ما يرونه من العذاب)) (ابن عاشور، 1984م، ينظر: 25/ 127)، وحالهم كالخائف ممّن يتبعه، فتراه يُمعِن في الجَرْي ويلتفت وراءه الفينة بعد الفينة لينظر هل اقترب منه الذي يجري وراءه وهو في تلك الالتفاتة أفات خطوات من جريه لكنّ حبّ الاطلاع يغالبه (ابن عاشور، 1984م، ينظر:25/ 128).

وعدّ الشريف الرضي النظر الوارد في الآية المباركة نظر الخائف الذليل، والمرتاب الظنين، فهو لا ينظر إلا مُسترقاً ولا يغضّ إلا مُشفقاً، وهذا معنى قول العرب: فلانٌ لا يملأ عينيه من فلان، إذا وصفوه بعظم الهيبة له، وشدّة المخافة منه، فكأنّهم لا ينظرون بمتسعات عيونهم وإنّما ينظرون بشفافاتها من ذُلِّهم ومخافتهم (الرضي، 1986م، ينظر:ص298).

ويلجأ الإنسان إلى تخفيف وطأة المشاهد المرعبة له والضاغطة على نفسه بإطباق الجفون، وهذا ما يحصل كثيراً عند تعرّضنا لموقف مخيف، فالسلوك البصريّ في حينها يركن إلى إطباق الجفون؛ لقطع المشاهد المرعبة التي تنقلها شبكة العين إلى الدماغ، وما إن يخفّ تأثير الدماغ في الحواس فإنّ الإنسان يعود إلى فتح عينيه، ويشير داروين إلى هذا السلوك بقوله: ((إنّ الأشخاص في أثناء وصفهم لمنظر مروع، كثيراً ما يقومون بإغلاق أعينهم بشكل عابر وبشكل قويّ)) (داروين، 2010م، ص97)، وما ذلك إلا لمحاولة تطمين النفس وإبعادها ممّا يخيفها، ولهذا نجد أنّهم لجأوا في الآية المباركة إلى الفرار البصريّ بالنظر من طرف خفيّ، ولو أُتيح لهم الهروب الجسديّ لفعلوه.

ومن الآيات التي أشارت للنظر بدلالة الخوف قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ **[محمد 20]**.

يختبئ المنافقون خلف أسورة أجسادهم لإخفاء ما تضمره نفوسهم من شكّ وخوف، إذ إنّهم لو اعترضوا أو تذمّروا من الأمر الربانيّ الذي يحثّ على الجهاد لكُشِف أمرهم وتبيّنت حقيقتهم؛ لذلك لم يستطيعوا إخفاء النظرات الكاشفة عمّا يدور في أذهانهم، وفي التشبيه القرآنيّ دلالة على القدر الكبير من الخوف والجبن اللذينِ يتصف بهما المنافقون.

قال الزجاج في بيان ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ﴾: يريد أنّهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظرا شديداً، كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت؛ لثقل ذلك عليهم، وعظمه في نفوسهم (الطبرسي، 2005م، ينظر:9/ 131)، وقال القرطبي: ((اي: نظر مغمومين مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهلعاً؛ ولميلهم في السرّ إلى الكفار)) (القرطبي، 2006م، 19/ 270)، وانتصب «نظر المغشي عليه من الموت» على المفعوليّة المطلقة لبيان صفة النظر من قوله: «ينظرون إليك» فهو على معنى التشبيه البليغ. ووجه الشبه ثبات الحدقة وعدم التحريك، أي: ينظرون إليك نظر المتحيّر بحيث يتجه إلى صوت واحد ولا يشتغل بالمرئيات؛ لأنّه في شاغل عن النظر، وإنّما يوجهون أنظارهم إلى النبيّ (ص) وهم يتظاهرون بالإقبال على تلقي ما ينطق به من الوحي، فلما سمعوا ذكر القتال بهتوا (ابن عاشور، 1984م، 26/ 108) و (الزحيلي، 2003م، ينظر: 13/ 436).

ولنا أن نتصوّر حقيقة نظرهم هذا بدورانه يمينا وشمالا كما يبيّن القرآن في موضع آخر ذلك بقوله: ﴿رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾.

والقرآن يؤكد أنّ الخوف سمة ملازمة لمن في قلبه مرض، فهو يخشى أن تنزّل سورة تفضح أمره، ويزداد خشية إذا ما نُزّلت سورة ذُكر فيها القتال؛ لأنّ الإيمان لم يدخل قلبه، وما التعبير الحركيّ المنبئ عن الخوف إلا دليل الجحود والإنكار، ففي الآية جانب ماديّ تمثّل في النظر، وآخر معنويّ تمثّل في المرض في قلوبهم؛ ولعلّ علّة هذه النظرة منهم هو المرض الذي في قلوبهم.

ويرد النظر بمعنى الانتظار كما اوضحنا ذلك في بيان معنى قوله تعالى: «وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناضرة». وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ **[النمل 35]**.

ويأتي بمعنى الفكر والاعتبار، وورد ذلك كثيرا في النصوص القرآنيّة ومثال على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾**[ق 6]**، إذ الاستفهام في الآية يجوز أن يكون إنكاريّا، والنظر نظر الفكر على نحو قوله تعالى:

«قل انظروا ماذا في السموات والأرض» (ابن عاشور، 1984م، ينظر:26/ 285)، وقد أشار الرازي في تأويل هذه الآية إلى أمرين: الأوّل: أنّه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر في الدلائل، والثاني: أنّ الدلائل إمّا أن تكون من عالم السماوات بالنظر في الشمس والقمر والكواكب ونظام حركتها، أو من عالم الأرض بالنظر في أحوال النبات والمعادن وأحوال الإنسان نفسه (الرازي، 1981م، ينظر: 17/ 135).

فالنظر يكتسب في الآيات المتقدّمة دلالته تبعا للسياق الذي يرد فيه، ولأنّه جاء وصفا للمنافقين في النصوص السابقة فقد كانت دلالته الخشية والخوف.

البصر:

البصر، له أصلان: أحدهما العلم بالشيء، يقال: هو بصير به، والبصر أيضا: حاسة الرؤية، وابصرتُ الشيء: رأيته (الرازي، 2011م، ينظر: مادة (بصر):1/ 133) و (الجوهري، 1990م، ينظر: مادة (بصر): 2/ 591). وقد ورد المعنيان في النصوص القرآنيّة مع معانٍ أخرى ستتضح لاحقا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ **[الأعراف 198]**.

أي وتراهم فاتحة أعينهم نحوكم على ما صوّرتموهم عليه من الصور، وهم لا يبصرون الحجّة (الزمخشري، 2012م، ينظر: 2/ 176) و (الطبرسي، 2005م، ينظر: 4/ 306). وإذا ما قابلنا هذا بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (القران الكريم، محمد، الآية: 16)، فهم ينظرون إليك يا محمد ولكنّهم لا يدركون حقيقة ما تقول، ويقول الرازي: ((إنّهم وإن كانوا ينظرون إلى الناس إلا أنّهم لشدّة إعراضهم عن الحقّ لم ينتفعوا بذلك النظر والرؤية، فصاروا كأنّهم عمي، وهذه الآية تدلّ على أنّ النظر غير الرؤية؛ لأنّه تعالى أثبت النظر ونفى الرؤية، وذلك يدلّ على التغاير، وأُجيب عن هذا الاستدلال فقيل: معناه تحسبهم أنّهم ينظرون إليك مع أنّهم في الحقيقة لا ينظرون، اي: تظنّ أنّهم ينظرونك مع

أنّهم لا يبصرونك)) (الرازي، 1981م، 15/ 100).

ونصّ الرازي المتقدّم يضمر دلالة أنّ الفعل (نظر) يُستشعر منه قصديّة الفاعل بإحداث فعل النظر، إلا أن الفعل (رأى) قد يخلو من قصد الفعل، ويبقى السياق هو المحدد الدقيق لحركيّة الفعل.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [**الأعراف 201**]، البصر جاء بمعنى العلم بالشيء وإدراكه بعد الغفلة، والمسّ يستنهض التقوى والإيمان في نفوس المتقين؛ لهذا يعدّ هذا النصّ علامة كاشفة عن التقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا **سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا** بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر 14–15].

ذكر ابن فارس أنّ السين والكاف والراء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على حَيرة، والتَّسْكير التَّحيير (الرازي، 2011، ينظر:1/ 564)، وبهذا المعنى يدلّ قوله تعالى: «سُكّرت أبصارها» على الحيرة وعدم إدراك الحقيقة.

والمعنى: سُدت، وقيل: أغشيت وعميت، وقيل: تحيّرت وسكنت عن أن تنظر، فنورها لا ينفذ ولا تستطيع إدراك الأشياء على حقيقتها (الطبرسي، 2005م، ينظر: 6/ 79– 81).

ويُستعملُ هذا الفعل بتغيير طفيف في اللهجة السوريّة بمعنى الإغلاق، فهم يقولون: (سَكَّرْتِ الباب) أي غلقت الباب.

ونلحظ أنّ النصّ القرآنيّ في هذه الآية وآيات أخرى يستعمل تعبيراً جسديّاً؛ لبيان عظم المتحدَّث عنه، وبهذا يوجز القرآن ببعض الكلمات مضمرات قوليّة فقوله: "سُكِّرت أبصارنا" تعطي امتدادا عموديّا في وضع المفردات المصوِّرة لمعنى الآية فهي: أغشيت، وعميت، وسُدّت، ولكنّ القاسم المشترك في الامتداد العموديّ هذا هو عدم إدراك الحقيقة.

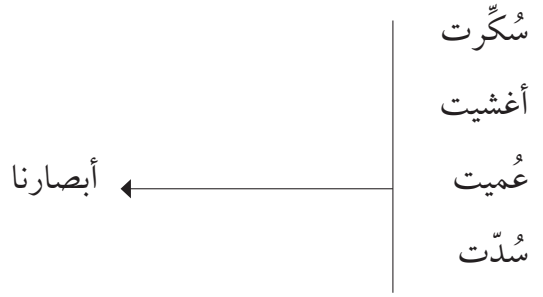

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ [**النحل** 77].

كلمح البصر: أي كطرف العين، وقيل: كرد البصر، وقال الزجاج: وما أمر إقامة الساعة في قدرته إلا كلمح البصر، أي: لا يتعذر عليه شيء، أو هو أقرب من ذلك، وهو مبالغة في ضرب المثل به في السرعة (الطبرسيّ، 2005م، ينظر: 6/ 139) و (الرازي، 1981م، ينظر:20/ 90)، وقيل (أو) دخلت لشكّ المخاطَب وقيل: (أو) بمنزلة بل (القرطبي، 2006م، 12/ 389).

ووجه الشبه في جملة التشبيه كلمح البصر يحتمل أمرين:

الأول: القدرة من دون كلفة؛ لأنّ لمح البصر هو أمكن وأسرع حركات الجوارح فهو أيسر وأسرع من نقل الأرجل في المشي ومن الإشارة باليد وغيرها.

الثاني: السرعة، أي: سرعة الحصول عند إرادة الله، فالأمر يحصل فجأة بدون أمارات كقوله تعالى: «لا تأتيكم إلا بغتة» (ابن عاشور، 1984م، ينظر: 14/ 230).

وقوله: «أو هو أقرب»، إضراب عن التشبيه الأوّل بأنّ المشبه أقوى في وجه الشبه من المشبه به، فالمتكلم يخيل للسامع أنّه يريد تقريب المعنى إليه بطريق التشبيه ثمّ يعرض عن التشبيه بأنّ المشبه أقوى في وجه الشبه وأنّه لا يجد له شبيها فيصرح بذلك فيحصل التقريب ابتداء ثم الإعراب عن الحقيقة ثانيا. والقرب في قوله: «أو هو أقرب» يمكن أن يكون المقصود به القرب الزمانيّ كناية سرعة حصول الأمر (ابن عاشور، 1984م، ينظر: 14/ 231)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾،

فالمقصود ليس قربًا مكانيًّا، بل هو إشارة إلى أنّ مركز العطاء في الحياة والموت هو الله -عزّ وجلّ-، وعبّر بأنّه أقرب للإنسان من حبل الوريد؛ لأنّ الحبل المذكور يرمز إلى عرق الحياة والممات في الإنسان.

والتشبيه هنا ليس قائما على المبالغة في توصيف الشيء فحسب، بل إنّه يجسّد الواقع الغيبي أو إمكانات الله بحقيقتها المطلقة، فقوله بأنّ قيام الساعة أقرب من لمح البصر إنّما يدع القارئ مرشحا لأن يتصوّر مدى قدرة الله التي لا تُحدّ، ولا شيء يقرّب إلى القارئ هذه الدلالة أكثر من الإشارة إلى أنّ فاعلية الله لا حدود لها (البستاني، 1424ه، ينظر: 2/ 475).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ **[القلم 42-43]**. **وقوله تعالى:** ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُون * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُون﴾ **[المعارج** 43-44]. **وقوله تعالى:** ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ* خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾. **[القمر 6-7]**

خشوع الأبصار: هيئة النظر بالعين بذلّة وخوف (ابن منظور، 2009م، مادة «خشع»)، وقد استُعير له وصف «خاشعة»؛ لأنّ الخاشع يكون مطأطئاً مختفياً، و«خاشعة» نصبُها على الحال (القرطبي، 2006م، ينظر: 21/ 178) و (ابن عاشور، 1984م، ينظر: 29/ 99)، وأصل الخشوع ظهور الطاعة أو المخافة على الإنسان. والرهق: الغشيان، أي: التغطية بساتر، وهو استعارة هنا لأنّ الذلّة لا تغشى (ابن عاشور، 1984م، 29/ 184).

ويحمل التعبير الجسدي (خشوع الأبصار بذلّة) دلالات خفيّة تظهر على سائر الجسد، ولكنّ القرآن الكريم اكتفى بذكر هذا التعبير الحركيّ لأنّه يدلُّك على الحال التي تبدو عليها بقية أعضاء الجسد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ **[القلم** 51].

الزلـق بفتحتـين زلـل الرجل من مَلَاسَـةِ الأرض من طين عليهـا أو دهن (منظور، 2009م، مـادة « زلـق») و (الـرازي، 2011م، مـادة «زلـق»)، ولّـما كان الزلق يفضي إلى السـقوط غالبا أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والاندحاض على وجه الكناية، ومنه قوله في الآية «ليزلقونك»، أي: يسـقطونك ويصرعونك (ابن عاشـور، 1984م، ينظر:29/ 107).

ويُفهـم مـن الآية بدلالـة الفعل (يـكاد) أنّ الزّلق لم يصدر منهـم، وهذا بخلاف ما ذكـره الطاهر بن عاشـور بـأنّ الفعل حصل وهـو ليس مجرد فـرض، وأنّ مجيء الفعل بالمضارع إيذانًا باستمرار ذلك في المستقبل (ابن عاشور، 1984م، ينظر: 29/ 108).

والعـرب تقول: نظر إليّ فلانٌ نظرةً يكاد يصرعُني، ونظراً يكاد يأكلني فيه، وتأويله كلّـه أنّـه نظـر إليّ نظراً لو أمكنـه معي أن يأكلَنـي أو يصرعَني لفعـل (الطبرسي، 2005 م، ينظـر:10/ 78) و (الـرضيّ، 1986م، ص343). ((وقد قال الشـاعر في نظر الأعداء بعضهم إلى بعض:

يتقارضـون إذا التقـوا في موقـف نـظـراً يُـزيـلُ مـواطـئ الأقـــدامِ))

(الجاحظ، 2003 م، 1/ 11)

وقد كثُر كلام المفسرين في بيان دلالة حركة العين في هذا السياق الشريف، والظاهر من مجمل أقوالهم أنّ المراد من هذا السلوك الحركيّ هو شدّة الكراهية والغيظ. واللافت أنّ المحـرّك لهذا السـلوك سـماع الذكـر الحكيم، أي: أنّهـم بلغوا درجة من الشـذوذ لا يطيقون سـماع القـرآن ممّا يدفعهم إلى أن يصدر عنهم السـلوك المشـار إليه (البسـتاني، 1424ه، ينظـر:5/ 90) **وقولـه تعالى**: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِـنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ **[الأحزاب 10]**.

تعـرض الآيـة التي قـال عنها المفسرون إنّها في معركـة الخندق لثلاث صـور بالغة الإثـارة والدهشـة من حيـث صياغتها الفنيّة، فضـلا عن العنصر القصـصيّ المتمثّل في بناء الأحداث والمواقف تبعا لدلالاتها النفسـيّة لا المكانيّة أو الزمانيّة. والصور الثلاث بـرزت في: (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسـفل منكم) و (زاغـت الأبصار) و (بلغت

القلـوب الحناجـر). وما يعنينا في هذه الآية التعبير الحركيّ الصادر من الأبصار، فضلا عـن الصورة المكمّلة لذلك ببلوغ القلوب الحناجر، فقوله: «إذ زاغت الأبصار»، تعني أنّهـا مالـت وعدلت عن الحركـة الطبيعيّة لها، فالزيـغ هنا أو الميل أو العـدول رمز فنيّ للدهشـة والحـيرة والقلق والخوف الـذي يبعثه مـرأى الجيوش المحتشـدة (الطبرسي، 2000م، ينظر:8/ 95) و (ابن عاشور، 1984م، ينظر: 21/ 280) و (البستاني، 1424ه، ينظر:3/ 464).

وممّـا أضفـى جمالا فنيّا في هذا النصّ أنّه ذو طابـع حسّيّ أو حركيّ وليس رمزاً ذهنيّا يصعب تمثّل دلالته، وأنّه تعبير عن حركة داخليّة بمعنى أنّ الخوف وهو طابع نفسيّ قد انعكس في مظهر جسديّ بميل البصر عن حركته الطبيعيّة (البستاني، 1424ه، ينظر:3/ 464– 465).

وتشـير الآية إلى حقيقة أنّ الشـخص في مواجهة الشـدائد والمفاجـآت المهولة يبقى مذهـولاً منبهراً مشـدوهاً يفقد السـيطرة على توازنـه، ويتضح ذلك على جسـده بزيغ الأبصار فضلا عن تعبيرات أخرى تبدو على الجسد.

وقد اسـتكملت صورة بلوغ القلوب الحناجر الصورة السـابقة وهذا النمط يمكن تسـميته بالصـورة الموحّـدة أو المكثّفـة التـي تتعاقب صورهـا المفردة، وهـي تعني أنّ القلـوب قد انخلعـت من الخوف واليأس من مكانها وصعدت إلى الحناجر حتى لتكاد تخرج، وهي تمثيل لشدّة اضطراب القلوب وليست حقيقة (ابن عاشور، 1984م، 21/ 280) و (البسـتاني، 1424ه، ينظر:3/ 365). وبلوغ القلوب الحناجر لا يشـكّل مظهرا جسـديّا ملحوظـاً مثل ميل البصر، بـل إنّه مظهر حسّي غير ملحوظ إلا من الشـخص نفسـه، فهو إحساس داخلي يخبره الشخص (البستاني، 1524ه، ينظر: 3/ 466)، ولكنه قـد يبدو بدرجات متفاوتة بانفعالات مثـل: ارتفاع ضغط الدم أو سرعة دقات القلب أو ارتجاف العضلات أو التلوّن الظاهر على الوجه من الخوف.

وزيـغ الأبصـار وبلـوغ القلوب الحناجـر، إشـارات إلى أنّ الذي سـبّب ذلك عدم الاسـتقرار والوثـوق بـالله، وأنّ هناك خلـلا في العقيـدة، فضلا عن أن بلـوغ القلوب

الحناجر أمارة إلى الاضطراب حتى على المستوى الماديّ، فلو أنّهم كانوا مؤمنين لاستقرّ الإيمان في قلوبهم وثبتوا في المعارك وانتصروا بإذن الله.

خلاصة القول أنّ العين بسلوكها الحركيّ لا تنفكّ عن بثّ الدلالات كاشفةً بذلك عن حال صاحبها النفسية والاجتماعية والنسق الذي تربّى عليه، فهي رسول يخبر المرء والآخرين بما يختلج في النفس.

الخاتمة

تبيّن من بحثنا هذا أن العين تحمل دلالات لا تقلّ شأنًا عمّا ينطقه اللسان، وقد دلّ السياق القرآني على معانٍ عدّة لعين المرسِل وعين المستقبِل، وكشفت النصوص أنّ آثار الاحتقار والخيانة والخوف والذلّ برزت في تراسل نظراتها، كما دلّت على الرعاية والحفظ، والوعي والاعتبار، وكل ما دلّت عليه العين بلوازمها لا ينفصل عن حال صاحبها النفسية والاجتماعية فضلا عن البيئة التي تربّى فيها.

المصادر:

ـــــ القرآن الكريم

ـــــ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 465هـ)، طوق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف، تح: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، 1975.

ـــ ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط)، 1984.

ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 328هـ)، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط1، 1983م.

ابن قتيبة، أبو محمد بن مسلم (ت 276هـ) : تفسير غريب القرآن، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ط)، 1978م.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري (ت 711هـ)، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، مراجعة: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2009.

الأصبهاني، أبو بكر محمّد بن داوُد، الزهرة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن – الزرقاء، ط2، 1985م.

الآلوسي شهاب الدين محمود (ت 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

الأندلسي أبو حيان محمد بن يوسف (ت 745هـ)، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض و زكريا عبد المجيد النوني و أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1993م.

البستاني محمود، التفسير البنائي للقرآن الكريم مؤسسة الطبع، إيران- مشهد، ط1، 1424هـ.

التبريزي، الخطيب، شرح ديوان أبي تمام، قدم له ووضع هوامشه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1994.

الثعالبي، أبو منصور (ت 429هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد، الكشف والبيان المعروف تفسير الثعلبي، تح: أبو محمّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002م.

الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)، 2003.

الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح – تاج اللغة وصحاح العربية–، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، 1990.

ـــــ داروين تشارلز التعبير عن العواطف عند الإنسان والحيوانات:، ترجمة: محمد عبد الستار الشيخليّ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2010.

الرازيّ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط3، 2011.

الرازيّ، محمد فخر الدين (ت 604هـ): التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981م.

ـــالرضي الشريف: تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق: محمّد عبد الغني حسن، دار الأضواء، بيروت، ط2، 1986.

الزحيليّ، وهبة: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط2، 2003.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل، تعليق وشرح: الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، (د.ط)، 2012.

الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

السامرائي، فاضل صالح، على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، كلية الآداب والعلوم، ط1، 2011.

الشعراوي محمد متولي: تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، (د.ط)، 1991م.

شلاش، الفرطوسي، طه شلاش، صلاح مهدي، المهذّب في علم التصريف، مطابع بيروت الحديثة، بيروت، ط1، 2013.

الصادق، الإمام جعفر (ع)، مصباح الشريعة، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط2، 1983.

الطبرسيّ، أبو عليّ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم، بيروت، ط1، 2005م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد الحسن التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط1، 2006.

الماوردي، أبو الحسن عليّ بن محمّد بن حبيب البصري (ت 450هـ)، النكت والعيون، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

ـــــ محاضرات الملتقى الوطني الأول- السيمياء والنص الادبي: جامعة محمد خضير بسكره، منشورات الجامعة، مطبعة دار الهدى في الجزائر، (د.ط)، 2000.

المصطفويّ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران، ط1، 1385هـ.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت 518هـ)، مجمع الأمثال، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المنّة المحمديّة، (د.ط)، 1955.